سيبيريا والنفي السياسي اليها

(وكلام سائح انكليزي ساح فيها)

لحضرة الياس افندي خليل عيساوي ب ع

قيل ان سجن ملوك فرنسا العلماء والادباء والابرياء في سجن الباستيل المشهور هو الذي دفع الشعب الفرنسوي الى الثورة الفرنسوية التي قلبت وجه العالم وخرج منها الاصلاح السياسي . واذا كان هذا القول صحيحاً فقد جاز ان نقول ان نفي روسيا الناس الى سيبيريا كان له شيء من ذلك التأثير على السياسة الروسية التي بدأ فيها الانقلاب الذي نراه . لان سيبيريا عند الروس كانت تقابل الباستيل عند الفرنسويين . ويسرّ كل محب لهذه الدولة العظيمة ان يراها قد دخلت الآن في طريق الاصلاح بالمنشور الذي نشره جلالة القيصر منذ مدة يعلن فيه رغبته الشديدة في اصلاح احوال الامة التي وضعها الله في ذمته . ولقد رأيت لهذه المناسبة ان الخص شيئاً عن سيبيريا ومنافيها السياسية واحوالها القديمة والحديثة ومنه يطلع القراء على التحسين المستمرّ في احوال روسيا

تمهيد

سيبيريا والمحجوزون السياسيون

سيبيريا واقعة في القسم الشمالي من قارة آسيا . وهي بلاد واسعة الاطراف تتخللها الانهر في كل جهاتها ويغطيها الثلج خصوصاً في شماليها مدة طويلة من السنة . وسكانها يبلغون عشرة ملايين نفس نصفهم من السكان الاصليين والنصف الآخر روسيو الاصل ممن اضطرتهم حكومة بلادهم للاقامة والتوالد هناك . والبلاد خصبة في اكثر جهاتها خصوصاً القسم الغربي منها . ويبدأ تاريخ خصبها بابتداء مهاجرة التجار وخصوصاً الالمان اليها منذ مدة قريبة . وبذلك اصبحت البلاد تضاهي بمدنيتها كثيراً من البلاد الاوروبية حتى ان في بعض مدنها الكبيرة كاركيتسك وتومسك ملاعب متقنة لتمثيل الروايات ومطاعم وفنادق كما في احسن البلدان الاوروبية مما يسلي المهاجرين عن اوطانهم

وقد افتتحت روسيا سيبيريا في سنة ١٦٥٨ وجعلتها من حين افتتاحها مستعمرة تنفي اليها المجرمين السياسيين والمدنيين وغيرهم ممن كان يقع عليهم سخط القياصرة والحكام .

فبطرس الاوّل كان يُبعد اليها العصاة افواجًا افواجًا . ثم حكم بعده بعض الملكات فكنّ ينفين اليها من اذنب اليهن من اهل البلاط . ثم جاءت الملكة كاترين المشهورة واخذت ترسل اليها البولانديين زرافات زرافات بدون ادنى رحمة او شفقة . ثم بعد ذلك صار يُنفى اليها النهيليست والسوسياليست وغيرهم مما كان يُشتبه في امرهم . ولكن عدد المنفيين كان قليلاً حتى القرن الثامن عشر حين ابتداء عددهم يزيد زيادة كلية . الا ان عددهم لم يكن يُعرف تمامًا قبل سنة ١٨٢٣ لانهم لم يكونوا يعملون احصآت رسمية كما في الوقت الحاضر . ولكن من المحقق انه في ابتداء القرن التاسع عشر كان يُنفى الى سيبيريا كل سنة نحو الفي رجل . وابتداءً هذا العدد يزيد حتى صار بين سنة ١٨٧٣ و١٨٧٧ ١٨٠٠٠ كل سنة . وفي سنة ١٨٨٢ اي حين اغتيال المأسوف عليه القيصر اسكندر الثاني بلغ عدد المنفيين ٢٠٠٠٠ ماعدا نساءهم واولادهم الذين تبعوهم وعددهم ٦٠٠٠ . ومن هؤلاء المنفيين من يُحكم عليه بالاشغال الشاقة ومنهم بسقوط الحقوق المدنية ومنهم بالنفي فقط . اما الذين يحكم عليهم بالاشغال الشاقة فيوزعون بين مناجم الذهب ومعامل الملح في كارا وازوليا . ولما كانت هذه المناجم والمعامل لا تسع اكثر من ١٠٠٠٠ رجل فيرسل الباقون الى سفاليان حيث يشتغلون في مناجم الفحم . وبعد قضاء مدة سجنهم يصير للمنفيين الحق بان يسكنوا في الضياع والقرى . ويظهر من الاحصآت الرسمية ان عدد الذين نُفوا منذ الابتداء الى اواخر القرن التاسع عشر يقارب مليوني نفس وثلث هذا العدد لم يعد يُسمع عنه خبر بعد نفيه . ويقال انه كان منذ مدة ٢٠٠٠٠ منفي يواصلون السير في الاحراش كي يرجعوا الى بلادهم ولكن كثيرين من هؤلاء يتيهون فيموتون في تلك الاحراش وتذهب آثارهم

ولكن المنفيين اقل كثيرًا مما يظن . ففي مقاطعة توبولسك يبلغون ٤٦ في المئة من السكان وفي مقاطعة تومسك ٢٩ وفي غيرها اكثر . ولكن المعدل ٤٩ في المئة من السكان . وقد كان المنفيون يُسامون في الابتداء اشد العذاب ويعاملون اردأ المعاملة ولكن في السنين الاخيرة تنبهت الحكومة لذلك واخذت في اصلاح حالة المسجونين وجعل السجون مطابقة للاصول الهيجينية كغيرها من سجون اوروبا . والفضل في كل ذلك للفيلسوف تولستوي الذي اذا لم يكن من فوائد قلمه غير هذا الاصلاح لكفى ذلك لوضعه في جملة المصلحين العظام في المجتمع الانساني . وقد عثرتُ في احدى المجلات الانكليزية على مقالة بقلم احد سياح الانكليز زار في خلال هذه السنة اعظم سجون سيبيريا بعد ان استأذن الحاكم العام في ذلك . فرأيتُ من الفائدة تلخيص مقاله . قال :

اعظم سجون سيبيريا

« لستُ انسى في كل حياتي تلك الليلة التي سافرتُ فيها من مدينة اركتيسك (عاصمة سيبيريا الوسطى الواقعة على مسافة ٤٠٠٠ ميل من شرقي موسكو عاصمة بلاد الروس القديمة) لاشاهد اعظم سجون سيبيريا وهو سجن « الكسندروفسكي » وكان البرد قارصاً والرياح تعوي عواء الذئاب اما الشتاء فانه في تلك البلاد يمتد الى ثلثي السنة ويشتد فيه البرد حتى لا يستطيع الاَّ القليلون ان يسكنوا تلك الاصقاع . والاهالي انفسهم لا يكادون يقوون على احتماله فيلتفون بالفرو من قمة الرأس الى الخمص القدم بحيث يصعب التمييز بين رجالهم والنساء

وقبل زيارتي لذلك السجن كنت اعتقد كما يعتقد لحد الان كثيرون غيري من الانكليز انني سارى هناك اشخاصاً يُساقون للموت قسراً بسبب المعاملة الرديئة التي يذيقها اياهم الجنود والضباط الموكلون بحراستهم . وانني ساسمع علاوة عن تنهدات اولئك المساكين التي تتفطر لها القلوب جلجلة السلاسل الحديدية التي تربطهم بعضهم ببعض . ولما استأذنت من حاكم اركتيسك العام بزيارة السجن كنت منتظراً ان يصادف طلبي رفضاً باتاً لعلمي ان الروس يريدون ان يخفوا عن العالم المتمدن تلك المعاملة التي يعاملون بها المنفيين . ولكن كان استغرابي عظيماً حين الفيت منه بدلاً من الرفض البات كل التسهيلات والمساعدات الممكنة

وسجن الكسندروفسكي هذا واقع على مسافة ٥٠ ميلاً من شمالي اركتيسك وصار الاتفاق ان اسافر اليه ليلاً مع احد موظفي السجون لانه لا يوجد في الطريق من محاسن الطبيعة ومناظرها الجميلة ما يرغب المسافرين بالسفر اليه نهاراً . فتسلح كل منا بالمسدسات اللازمة للطريق خوفاً من ان يهاجمنا بعض الذين اتموا مدة نفيهم واتخذوا لانفسهم بعدها حرفة اللصوصية . ذلك لان الحكومة الروسية لا تكلف نفسها ارجاعهم الى بلادهم بل تتركهم وشأنهم فيرجع منهم القليل ويقصد البعض امهات المدن السيبيرية فيجدون اشغالاً فيها . اما الاكثرون فيحترفون حرفة اللصوصية وقاطعي الطرق فيتعرضون للمسافرين ويقتلونهم ويسلبون امتعتهم ونقودهم . وسكان المدن انفسهم ترى كثيرين منهم من الاشقياء لان سكان سيبيريا ويبلغون عشرة ملايين نفس نصفهم اما من المجرمين الذين اكملوا مدة سجنهم او من نسلهم . ولما كان « العنب لا يُجنى من الشوك ولا التين من الحسك » فلا يُنتظر اذاً ان يكون هؤلاء ادباء مهذبين . ولكن قد قدرت العناية الالهية ان لا نصادف في طريقنا احد هؤلاء اللصوص . فوصلنا الكسندروفسكي الساعة الرابعة في الصباح بعد ان ذقنا في اثناء سفرنا مرارات البرد القارص

واول شيء وقع عليه نظري كان كنيسة ارثوذكسية كبرى سقفها مغطى بالثلج . اما المكان فكان هادئاً لا يُسمع فيه غير وقع حوافر افراس يعلوها بضعة انفار من القوزاق المنوط بهم حراسة السجن . والسجن نفسه كان مظلماً كالقبر وهادئاً لا يُسمع منه ادنى حركة او صوت . وقد رأينا تجاه السجن بناءً جميلاً هو منتدى للاجتماعات . فاوقفنا المركبة ودخلنا اليه . وما وقفتْ بنا المركبة حتى طلع من ذلك المكان عدة اشخاص كانوا من المجرمين الذين اختاروا ان يستبدلوا سجنهم بالخدمة في ذلك النادي وهي نعمة عظمى عند المنفيين لا ينالها منهم الا من كان سلوكه حسناً وحاز رضى رؤسائه . وقبل ان اشرح ما رأيت في سجن الكسندروفسكي لا ارى بدًّا من الاشارة الى سجون سيبيريا على الاجمال والمنافع التي تعود على روسيا من ارسال المجرمين اليها

سجون سيبيريا على الاجمال

من المعلوم ان كل البلاد الواقعة الى شرقي جبال اورال التي تفصل روسيا عن آسيا كانت قبل امدٍ غير بعيد لا يُعرف عنها شيء . فكان يظنها الاوربيون بلاداً قاحلة تكسوها الثلوج على مدار السنة . ويملأها الظلام عدة اشهر من كل عام . ولما كان الحكم بالقتل قليلاً جداً في بلاد الروس ارتأت الحكومة الروسية ان تبعد كل المجرمين من لصوص وقتلة وغيرهم ممن يُغضبون جلالة القيصر الى تلك البلاد المخيفة فلا يرجع منهم الا القليل وبهذا تتخلص الهيئة الاجتماعية من شر اعضائها الاشرار او الذين يُحسبون اشراراً . ولذلك كان الاهالي قبل امتداد السكك الحديدية في سيبيريا يتجمهرون حول المجرم يوم سفره فينسون جرمه مهما كان كبيراً ويقدمون اليه بسخاء المال والطعام ظناً منهم ان ذلك المنكود الحظ ذاهب الى سيبيريا ليُقبر فيها حياً . وهذا ماجعل الاوربيين يبالغون في وصف المعاملة السيئة والعذابات التي يتحملها المنفيون . ولكن كما انه في المدة الاخيرة وخصوصاً بعد الشروع في عمل السكة الحديدية السيبيرية ذهب منا كثيرون الى سيبيريا فطرحوا اعتقادهم السابق وصاروا يعرفون جيداً انها ليست البلاد التي كانوا يظنونها قبلاً وانها بلاد خصبة طيبة الهواء خصوصاً في ايام الصيف هكذا زيارتي لسجون سيبيريا وان يكن في تلك السجون شيء كثير قابلاً للنقد واللوم لكنها جعلتني انبذ تصوراتي القديمة بخصوصها . فروسيا متأخرة قرناً كاملاً في الحضارة والمدنية عن باقي رصيفاتها الاوربيات . ومنذ زمن قريب كانوا يعاقبون في سجونها عقابات صارمة جداً . فكانوا مثلاً يجلدون المذنب جلداً يهون عنده الموت حتى ان جلاداً ماهراً من جلادي سيبيريا يقدر ان يذيق المجلود حتفه بستة

اسواط فقط . والمنفي بعد ان يُسجن المدة المحكوم عليه بها يُصرح له بترك السجن على شرط ان يبقى في سيبيريا مدة معينة قبل ان يُسمح له بالرجوع الى بلاده . ويحق لزوجة المنفي ان تعتبر نفسها طليقة بحسب الشريعة الروسية ولكنها اذا ارتأت ان تتبع زوجها تنقلها الحكومة مع اولادها بدون اجرة . وهناك تسكن مع اولادها في القرية الاقرب للسجن (ويوجد في اغلب الاحيان قرية بجانب كل سجن) والحكومة لا تساعدها الا بدفع ثلاثة ارباع البنس (٤ مليمات) في اليوم عن كل واحد من اولادها ولكنها تعطيها ثياباً لتخيطها او لتغسلها فتنتفع باجرتها . والزوج اذا حاز رضى رؤسائه يُسمح له في كثير من الاحيان ان يذهب ويسكن مع عائلته وان يشتغل ليقوم بمعاشها . والقسم الاكبر منهم لا يرجعون الى روسيا عند قضاء مدتهم بل يفضلون البقاء في سيبيريا . ولما صار في المدة الاخيرة يقصد روسيا كثير من التجار الروسيين جعلوا يرفعون العريضة وراء العريضة طالبين من جلالة القيصر ان لا يرسل اليهم « اوباش البلاد » فقبل جلالته اخيراً وامر ان لا يُرسل اليها بعد الآن سوى المجرمين السياسيين والمجرمين المحكوم عليهم بالسجن المؤبد . اما الباقون فيعاقبون في مدنهم كما في باقي الممالك . واكثرهم الآن يُنفى الى جزيرة سفاليان الواقعة على الساحل الشرقي . وفيها ارداً السجون حتى اذا دخلها المجرم لا يبقى له بارقة امل بالخروج منها حياً . وحالما يدخلها يُلغى اسمه ويسمى بدل الاسم بعدد يميزه عن غيره . ولا يُسمح له بمخالطة احد من اقاربه واصدقائه . وحين يموت لا يعلم اهله بموته . فهو بالنسبة الى العالم ميت بصورة الاحياء . اما معاملة المجرمين والقصاصات التي تُنفذ فيهم فهي ليست من القساوة بالدرجة التي يتصورها البعض . وانا لا الوم الحكومة الروسية سوى لابعادها الى سيبيريا المجرمين السياسيين او بعبارة اخرى اصحاب الافكار الحرة واكثرهم من تلاميذ الكليات الذين يريدون ان ينشروا مبادىء الحرية والصلاح ولو بواسطة « الديناميت » . فهؤلاء الاحداث والشبان الذين تتقد في صدورهم نار الحرية يطلبون الاصلاح بواسطة الثورات كما كنا نعمل في حداثتنا حين كنا في المدارس . ولكن الحكومة الروسية بدلاً من ان تعير هؤلاء الاحداث (اقول احداثاً لاني شاهدت كثيراً منهم في الخامسة عشرة والسادسة عشرة من العمر) اذناً صاغية وتنظر الى مطالبهم بعين الرضى والاستحسان تبعدهم الى سيبيريا لكي تموت تلك العواطف الشريفة من نفوسهم مدة السجن . وقد تحادثت ملياً مع كثيرين منهم فاخبروني انهم يتأسفون جداً لهذا الضغط التي تضغطه روسيا على الافكار الحرة . ولم يزيدوا على هذا ولا تذمروا من معيشتهم . وهؤلاء « السياسيون » لا يُلقون في السجون مع غيرهم من

المجرمين المدنيين بل لهم سجون خاصة بهم . ويُسمح لهم بقراءة الكتب غير الاجتماعية والسياسية منها . وهم عائشون معًا كعائلة . وبالاختصار ان معاملتهم ليست كما يُظن . وحين تنتهي مدة سجنهم يبقى اكثرهم في سيبيريا حيث يجدون وظائف عديدة لانهم كما تقدم القول من المتنورين . ويمكن ان اقول بدون مبالغة ان ٨٠ في المئة من اصحاب الوظائف المهمة الذين صادفتهم مدة وجودي في سيبيريا هم من المجرمين السياسيين الذين انهوا مدة سجنهم

سجن الكسندروفسكي

ولنعد الآن الى وصف ما شاهدته في سجن الكسندروفسكي . فبعد ان استرحنا قليلا ذهبنا لمشاهدة السجن المذكور فدخلنا غرف النوم فالفيناها واسعة جدًا ويفصل الواحدة عن الاخرى ابواب حديدية غاية في الضخامة . ولاحظتُ ان الفريق الاكبر من المسجونين رجالٌ اقوياء البنية ووجوههم مطبوع عليها علامة المجرمين . وكان كل واحد منهم لابسًا رداءً من اللباد . ولما كانت هذه الملابس تُصنع كلها على قياس واحد فكنت ترى امامك صورًا مضحكة . وقد استنتجت انهم لا يخافون الموظفين كما كنت اظن قبلاً وان جميع الموظفين غاية في اللطف معهم . ثم ذهبنا لورشة الصنائع فوجدنا المجرمين يشتغلون بعمل ثياب واحذية واثاث بيوت وغيرها . وقد اخبرني الحاكم ان اثاث القسم الاكبر من بيوت اركيتسك هي من صنع سجن الكسندروفسكي . وفي كل واحدة من الغرف كنا نجد معلقًا على الجدران الايقونات الكنائسية (الصور) كما هي العادة عند الروسيين . وقد رأيت بين عداد المسجونين ٢٠٠ من مسلمي البلاد التابعة لروسيا كبلاد التتر وبخارى وكرجستان وغيرها ويُسمح لهؤلاء ان يكرسوا يوم الجمعة للعبادة ويسمح لليهود ان يعيدوا السبت ايضًا . ومن الغريب انني وجدت في جملة المنفيين اليهود رجلاً انكليزي الاصل كان قد ذهب الى روسيا بقصد الاتجار فابتداء هنالك يزور اوراقًا مالية ويقلد تواقيع الناس فحكمت عليه الحكومة الروسية بالابعاد ١٦ عامًا الى سيبيريا

وقد سألت الحاكم عن الوسائط التي يتخذها لكي يدفع الضجر والسآمة عن المنفيين . فاخذني الى غرفة واسعة فيها رفوف كتب مختلفة المواضيع وفي وسطها موائد عليها جرائد ومجلات تصويرية . وكان حول الموائد كثيرون من المسجونين يتفرجون بمشاهدة الصور في المجلات . ويوجد معلم خصوصي لتعليم من اراد منهم القراءة والكتابة . ولما آنست من الحاكم هذه المعاملة اللطيفة لهم احببت ان امزح معه فقلت له « يظهر لي انكم تعاملون هؤلاء المذنبين معاملة تكاد لا تصدق فلماذا لم تبنوا لهم ملعبًا للتمثيل يتسلون به » فاجابني الحاكم

على الفور « عندنا لهم ملعب للتمثيل » ثم اخذني الى قاعة جميلة وقال لي « في كل اسبوع يجتمع المسجونون الذين كان سلوكهم حسناً فيمثلون روايات هزلية » ثم طلب مني ان لا اذكر شيئاً عن هذا الملعب في كتاباتي لئلا يستاء من ذلك رؤساؤه في روسيا . وقال لي « يذكر لي بعض السياح الذين يأتون لزيارة السجن هنا انني اعامل المسجونين بلطف كلي ولكني في الحقيقة لا اعمل سوى الواجب . لان المقصود من السجن ليس العقاب فقط بل جلّ القصد منه ان يعلم السجين ان يكون نافعاً بعد ان يترك السجن . ولذلك فانا لا افرض على احدهم شغلاً لا يعود بفائدة عليه . وقد علمني الاختبار ان اللطف يؤثر بالمجرمين فيحسّن سيرتهم ويجعلهم يفتخرون بصنائعهم التي يتعلمونها هنا »

ثم زرت المطبخ فوجدته نظيفاً والاكل مغذياً ولذيذاً . وبعده زرت المستشفى حيث لاحظت ان اغلب المرضى مصابون بالتدرن الرئوي . ثم ذهبت الى المدارس التي يتلقى فيها ابناء المجرمين المعارف والصنائع وسررت جداً من النظافة والاتقان في كل المحلات . ولاريب ان صنيعاً كهذا يشفع بالمعاملة السابقة في الازمنة الماضية مهما كانت درجتها من الشدة

سجن النساء السياسيات

ولاتمام الفائدة لا ارى بداً من ان اذكر قليلاً عن سجن النساء في اركيتسك . فهو وان يكن يسمى « سجناً » لكن ليس بالحقيقة سوى بيت اعتيادي محاط بجدار عالٍ ومفتوح الابواب في اكثر الاوقات بحيث يقدر من شاء ان يخرج منه بدون ان يشعر به احد . وهو ليس نظيفاً كسجون الرجال . وقد استغربت كيف لا يخافون ان تهرب السجينات منه ما دامت ابوابه مفتوحة فبناءً عليه سألت رئيسته عن ذلك فاجابت « انه لا يخطر ابداً ببال السجينات ان يهربن . وفي طول مدة وجودي هنا كرئيسة لم يحدث غير حادث من هذا القبيل . وذلك انه عند ما قرأنا ذات يوم اسماء السجينات في المساء كما هي العادة وجدنا احداهن غائبة فاستغربنا ذلك ولكنها ما لبثت ان عادت ثانيةً بعد خمسة ايام . فسألناها عن سبب هربها فاجابت « بما انه غير مسموح للرجال ان يزوروا السجن رأيت نفسي مضطرة ان اذهب لارى حبيبي في مكان قريب » فسامحناها لان عذرها مقنع ..